

الغذاء: الحرب القادمة بلا أسلحة

قراءة في النظام الغذائي العالمي بين الصراع والهشاشة والانهيار التدريجي

لم تعد الحروب الحديثة تقاس بعدد الدبابات أو الصواريخ فقط، بل باتت تقاس بقدرة الدول على ضمان عنصر أكثر أساسية من كل أدوات القوة وهو الغذاء؛ ويعود ذلك إلى أننا نعيش في عالم مترابط اقتصادياً، ما جعل الخبز جزءاً من معادلات الجغرافيا السياسية، وأصبح اضطراب سلاسل الإمداد يعادل في أثره أحياناً اضطراب الجبهات العسكرية. هذه القراءة تفكك البنية العميقة للنظام الغذائي العالمي كما تصفه تقارير الفاو وبرنامج الغذاء العالمي، وتوضح كيف يتحول الغذاء من سلعة إلى أداة ضغط، ومن عامل استقرار إلى عنصر هش شديد الحساسية للصراعات.

أولاً: العالم لا يعاني نقصاً في الغذاء بل في كيفية الوصول إليه

رغم أن الإنتاج العالمي يكفي نظرياً لإطعام البشر، إلا أن مئات الملايين يعيشون في حالة انعدام أمن غذائي. فالمشكلة ليست في الإنتاج، بل في اختلال التوزيع وضعف القدرة الشرائية وهشاشة سلاسل الإمداد والصدمات السياسية والمناخية ما يجعل العالم لا يجوع بسبب قلة الطعام، بل بسبب عدم استقرار الوصول إليه.

ثانياً: بنية النظام الغذائي

تقوم على قوة بلا مركز، فهي شبكة معقدة تتداخل فيها الدول المنتجة الكبرى للحبوب والشركات العالمية وأسواق التسعير والممرات البحرية كقناة السويس وباب المندب ومضيق هرمز، فهذه الشبكة تمنح العالم وفرة، لكنها في الوقت نفسه تجعل النظام قويا ظاهريا ولكنه هش بنيويا.

ثالثاً: الحروب كعامل تسريع لا كسبب مباشر

فالحروب الحديثة لا تستهدف الغذاء غالباً، لكنها تضرب أساسياته كالإنتاج والطاقة والنقل، ولنا عبرة فيما آلت إليه الأمور في حرب أوكرانيا حيث أدى الصراع في مكان حساس غذائياً إلى اضطراب عالمي في أسعار الحبوب خلال فترة قصيرة.

رابعاً: من الأزمة المعيشية إلى الاضطراب السياسي

تعد أهمية الغذاء ليس كونه مجرد سلعة، بل عامل استقرار داخلي، فعند ارتفاع الأسعار أو نقص الإمدادات تبدأ سلسلة تصاعدية بالظهور: أولها ضغط معيشي بسبب ارتفاع أسعار الغذاء الذي يضغط على الأسر، ثم تأخذ شكل اضطرابات مجتمعية، كاحتجاجات وتوترات داخل المدن إلى أن تصبح أزمة سياسية بسبب تراجع الثقة في المؤسسات وازدياد الاحتقان، ما يجعل الدول أكثر عرضة للضغط أو التأثير الخارجي.

خامساً: كيف يصبح الغذاء أداة ضغط دون حرب؟

لا يستخدم الغذاء كسلاح تقليدي، بل عبر أدوات غير مباشرة كفرض قيود على التصدير أو تعطيل الممرات أو من خلال المضاربة في الأسواق أو التلاعب بأسعار الطاقة أو إحداث اضطراب في سلاسل الإمداد واستخدامه كأداة ضغط أو

ورقة تفاوض كما حصل في غزة حين تداخلت الحرب مع الإمدادات الإنسانية بسبب تعرض سلاسل الإمداد لاضطراب شديد ثم تقييد دخول المساعدات الغذائية ما جعل الغذاء جزءا من معادلة الصراع لا مجرد حق إنساني.

سادسا: الانهيار التدريجي للنظام الغذائي

لا يكمن الخطر الحقيقي في مجاعة مفاجئة، بل في تآكل بطيء في استقرار النظام الغذائي العالمي قد يحدث بسبب حروب أو مناخ أو ارتفاع في أسعار الطاقة أو كما ذكرنا فرض قيود على التصدير أو قد يكون بسبب ضعف المخزون... كل هذه التحولات قد تؤدي إلى أسعار مرتفعة بشكل دائم وتراجع القوة الشرائية وإحداث فجوة بين الدول.

سابعا: سيناريو التسارع الجيوسياسي

في حال توسعت الحروب في مناطق مثل أوكرانيا أو إيران أو في حال تم توريث الخليج أو حرب نووية غير محسوبة من شأنه أن يؤدي (بسبب اضطراب الإنتاج والطاقة وتهديد الممرات البحرية وارتفاع تكاليف النقل وقرارات منع التصدير) إلى انفجار الأسعار عالميا، وهكذا تتشكل أزمة غذائية دون استهداف مباشر للغذاء.

ثامنا: منطق القوة في زمن الغذاء

القوة لا تكمن في السيطرة الكاملة، بل في القدرة على الصمود والتحكم في الإمداد أثناء الأزمات وامتلاك مخزون استراتيجي والتحكم في طرق النقل.

وهنا بيت القصيد من كل ما سلف، وهو دورنا اليوم في العمل لاستعادة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة التي تملك القدرة على استثمار ما تملكه بلادنا من عناصر القوة وعلى قلب معادلة الغذاء بالكامل، فبلادنا تقع على مفاصل حيوية من الاقتصاد العالمي وتتحكم في ممرات بحرية كبرى، وتملك وزنا مؤثرا في أسواق الطاقة، فضلا عن مساحات زراعية يمكن مع إدارة فعالة أن تستعيد جزءا مهما من القدرة الإنتاجية، فكل ما سبق ذكره كفيل بأن يحول موقعنا من دائرة التأثير إلى دائرة التأثير، عندها لن يبقى الغذاء ورقة ضغط تفرض من الخارج، ولا أداة تفاوض تنتزع بها التنازلات، بل عنصر سيادة يدار بوعي واستقلال، عندها فقط، يتغير موقعنا في هذه المعادلة؛ من مستهلك يتأثر بالأزمات إلى فاعل يملك القدرة على تشكيلها أو احتوائها.

ولن نتمكن من استعادتها طالما هناك حكام يفرضون قيودهم علينا ويسترخصون دماءنا ويبيعوننا بثمان بخس مقابل استمرارهم في الحكم الذي لا يرضي الله ورسوله.

إن السعي لكسر تلك القيود مع اليقين الصادق بأن النصر من الله من شأنه أن يعيد لأمتنا مجدها وعزتها، وهذا وعد الله عز وجل لنا ولن يخلف الله وعده.

كاتبته لإذاعة المكتب الإعلامي المركزي لحب التحرير

منال أم عبيدة